وهو القائل أيضاً :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿ وأكيد كيداً ﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾

وبعد أن قال سبحانه : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : " كل الناس " ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لايخلو من هداة مهديين ، لتستمر الأسوة السلوكية فى المجتمع .

والأسوة السلوكية فى المجتمع هى التى تربى عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلى ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنَّه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يُؤَذّنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان فى سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعى للخوض فى سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض فى سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه ، بدليل أن الصغير الذى لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليُحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم فى حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفى الشرك ، وقد يكون العدل فى مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل فى مسألة الحقوق بين الناس.

﴿ وممن خلقنا أمة ﴾

وقوله فى الآية الكريمة : "أمة" يعنى أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر فى الشجاعة ، وثالث فى الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة فى مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام- فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنه جامع لخصال الخير التى لا توجد إلا فى مجتمع واسع ،

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأى أمة من أم الأرض - إذن - هى التى تهدى بالحق ؟ لقد قال سبحانه فى قوم موسى!

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس فى الإلحاد، زاد الله في المدد، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة فى الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر فى كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء؛ ما تحمس للحق أحدٌ، ولا عرف الناسُ ضرورة أن يتأصل الحق فى الوجود ، فللشر - إذن - رسالته فى الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى فى قوله : « وَمِمَّنْ خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » فى الحكم، عدلاً فى القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هى مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم، فالشرك والعياذ بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله، وكل ذلك ظلم، وكذلك عدم حفظ التوازن فى الحقوق بين الناس، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولي ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضن بجهده فى الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عَرَق وتعب كل واحد. فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك. لكنْ لله حق فيه، وأنت لك الباقى، حتى يجد الضعيف الذى لا يقدر على حَركة الحياة من يقيته. ولذلك يحذرك المنهج الإيمانى بقوله: إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قُوَّتك التى استعملتها فى تحصيل هذا المال إنما هى عرض لا يدوم لك، فإن أخذنا منك وأنت قوىٌ قادر على الحركة، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة فى تلك الآية ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

فقد جاء فى الآثار أن المراد بالأمة فى هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إذا قرأ هذه الآية: هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(١)

ويخاطب النبى صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله: هذه لكم، أى فى أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة "للناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهى أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وذكر "أمة" لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع فى إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذاك فيه شجاعة، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكأن الأمة المحمدية قد وجد فى أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثاني، والطبرى المجلد السادس.

الصالحة للخلافة فى الأرض.

ويأتى الحق بعد ذلك بمقابلهم، لأن مجىء الشىء بمقابله أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، والآيات جمع آية، وقلنا : إن الآيات التى فى الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتهتدى بها إلى من صنع ذلك الكون المترامى الأطراف بتلك الدقة العظيمة، وذلك الإحكام المتقن، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله، وآيات قرآنية تحمل منهج الله. والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة. وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنيا، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان فى الكون، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج. عكس من يعربد فى الكون؛ لذلك لابد أن يأتى العقاب لمن يعربد فى الكون أثناء الحياة الدنيا، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾

وحين تقول : أنا استدرجت فلانا ، فأنت تعنى أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم، ويحاصره بالأسئلة من هنا، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف، وهذا هو الاستدراج. و "الاستدراج" من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية "السلّم" وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلا فى عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر سنتيمتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس، وهذا يعنى أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه.

وقد خصوا فى الآخرة الجنة بالدرجات العليا ، والنار بالدركات السفلى.

وهنا يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى نأخذهم درجة درجة ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه، كما قال سبحانه من قبل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه فى حق أخيه الإنسان فى الدنيا يأخذه من أول جرم؛ لأن الأخذة فى هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملى له ويعليه ثم يلقيه من علٍ.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكونُ الآخذُ أخذ عزيز مقتدر.

وحين يَستدرجُ البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضا ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وفخ منصوب له، لكنْ حين يكون ربنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلتَ. والعلة فى قوله: "سنستدرجهم" هى قوله: ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣ ﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً، فالإيمان يعطى الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بلَ هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهنا يوضح الحق: إذا كنت سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين. والكيد هو المكر، والمكر أخذهم من حيث لايشعرون وهو عملية خفية تسوء الممكور به.

وهو تدبير خفى حتى لا يملك الممكور به ملكات الدفع. وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكراً ؛ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً ؟. طبعاً لن يستطيع أحد ذلك. هذا هو معنى ﴿ إن كيدى متين ﴾ ؛ومتين أى قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مكوّنٌ من عمود فقرى وفقرات عظمية، تحيط بها عضلات. فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان

أي حمل عليه يكسره. فشاءت تجليات ربنا عزوجل واقتضت رحمتُه وقدرتُه أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين، وهما مانسميه في عرف الجزارين "الفلتو" لحماية الظهر وتقويته ووقايته.

وإذا نظرنا إلى كلمة "متين"، نجد "المتن" هو الشيء العمودي في الأشياء، وفي العلم مثلاً ندرس الفقة وندرس النحو، ويقال: هذا هو المتن في الفقه، أي الكلام الموجز الذي يختزل العلم في كلمات محددة، والذكي هو من يستوعبه. وغالباً نجد مع المتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤ ﴾

وهنا يُنَبِّه الحقُّ سبحانه وتعالى كلَّ الخلق أن يتفكروا في أمر الرسول المبلغ الذي ينقلُ عن القوة العليا مرادَها من الخلق. وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذي يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله. لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج، فقال بعضهم اتهاما للرسول: إنه مجنون، مثلما قال بعضهم من قبل: إنه ساحر، وكاهن، وقالوا: شاعر، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل.

ونتساءل: من هو المجنون؟.

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على التوازن الفكري، يصبح غير أهل للتكليف؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل ؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه ؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والدُه أو والدتُه الملابس والطعام ، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مراهقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه مايريده لأنه قد صارت له ذاتية ، والذاتية - كما نعلم - توجد فى النبات وفى الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله ، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان. أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية فى الإنجاب والنسل ، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة فى التفكير ؛ فهنا يسقط عنه التكليف ؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذى لم يَبْلغ ، والمجنون والمكره بمن هو أقوى منه ، وهذه عدالة الجزاء من الحق ، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله ، وبهذا يحرس ربُّنا الكون بقَيُّوميَّته .

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلى الذى يختار بين البديلات ، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات ، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غالٍ نفيس لهم حتى وهم كافرون به . وخلقه الفاضل ذاتى مستمر ودائم .

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له ، وبغَوْغَائيَّة ، وكل واحد يلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ؛ لذلك قال الحقَ تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى أن يجلس كل اثنين ويتدارسا : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أنّ محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أن يضره الوحى ، أو أن يفقد بالوحى توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقاً عظيماً ؛ لأن الخُلُق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأن يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم . ومادام خُلُقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه " ساحر " ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق .

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾

الجنَّة التى تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هى منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ، جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم فى غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ ﴾

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذى يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكر ومسئوليته :

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾

والتفكر هو إعمال العقل حتى لا يقولَنَّ أحد : إن رسول الله مجنون، لأن مجرد النظر فى الكون يجعل الإنسان رائيا للسماء مرفوعة بلا عمد، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك فى انتظام دقيق.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

إذن فوقَنا سماء، وهناك ما فوق السماء، وتحتنا الأرض، وفيها ما تحت الأرض، وهناك ما بين السموات والأرض. وما نراه فى الظاهر هو ما يسمونه « مُلْك » أما الخفى عنك الذى لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت ».

ويقول سبحانه فى سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة فى الملك، مثل رهبوت أى الرهبة الشديدة، ورحموت أى الرحمة الشديدة، وكلها صيغة « فعلوت » وهى صيغة المبالغة.

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ﴾

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن العظمة والسر ليسا فى السماء والأرض فقط، بل هناك أشياء دقيقة جداً، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق. وأنت قد ترى ساعة « بيج بن » الشهيرة فى لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة فى العالم، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة فى حجم الخاتم، ونبهر ونعجب بدقة عمله وصنعته. فما بالنا بالخالق الأعظم الذى يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذى لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملأ معدته وله أجهزة تحول غذاء ليكون دماً.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق:

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

أى من أول شيء يقال له شيء، صار محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التى تعطى له الحياة، وتعينه، حتى وإن كانت حواس استشعارية فى ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل. مثال ذلك : نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التى نتهمها بالغباء.

وحين يتأمل العقل ما وصل اليه العلم فى البحث فى عالم الحيوان وعالم البحار، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

إننا نعلم أن الإنسان جنس، وأن له نوعين : نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبينهما جنس مشتبه نسميه الخنثى، والأجناس لها أفراد متعددة. وكل واحد له خلق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة. وساعة يطلب منا الحق : إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة « شيء» هذه هى المقياس، ولذلك يقول لك الشرع : إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هى ليست بشيء ذى بال. وإن همّ واحد بعمل سيئة فلا يقل : وماذا ستفعل لى سيئة واحدة ؟

مستصغراً شأن هذه السيئة . وهذا نقول له : لا ، لأن كلمة « شيء » يجب أن تحكم الكون . إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين ، ولا بسطة له في جسمه ، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة ، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة ؛ لأن الله قد يعطى الضئيل فكرا عميقاً ، أو حيلة كبيرة ، أو موهبة خاصة فى أى شىء . فلا تنظر إلى شىء قليل فى أى إنسان ، بل انظر إلى الشىء الجميل الذى فيه وهو المخفى عنك فى نفسك .

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

ولماذا تأتى هنا حكاية اقتراب الأجل ؟ وللإجابة عن التساؤل أقول : إنها هامة جداً ؛ لأننا مادمنا أفراداً أى جنسين أو ثلاثة أجناس ، وقال عنا ربنا إننا خلفاء فى الأرض ، فعلينا أن نعلم أن الخليفة فى الأرض جاء ليخلف من سبقوه ، وقد يُميت ربنا أى إنسان فى سن شهر أو سنة ، أو سَنتين أو خمسين عاماً ؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى - نفسه ولا يعلمه أحد ؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية ، وعلى سبيل المثال : إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا : لنيل إجازة الليسانس ، وسنجد منهم الطويل ، والقصير ، والأبيض ، والأسود ، والذكى والغبى ، والقوى والضعيف ، وهم لا يتفقون إلا على دراسة الحقوق ، وكذلك لا نتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت ، فهناك من يموت وهو فى بطن أمه ، ومن يموت وهو طفل ، ومن يموت وهو فتى . وإن كنا نختلف فيما بقى بعد ذلك ، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول : لا لن أموت .

ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت ، لتثاب على ما فعلت فى الدنيا بدلاً من أن تعاقب ، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجىء الأجل ، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل ، والإبهام هو أوضح أنواع البيان ، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه .

ومثال ذلك : لو جعل الله للموت سناً ، لصار الأمر محدداً بلا أمل . لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سناً أو سبباً، وأشاعة فى كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت فى أى لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتى بسبب وقد يأتى بغير سبب، ومادام الإنسان يستقبل الموت فى أى وقت، فعلى العاصى ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

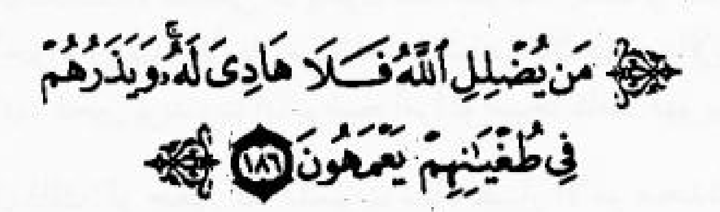
وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض ؟؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذى نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوى هذه الحياة ؟. وما ذنب الذى لم يعش فى الدنيا إلا شهرا ؟ لابد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هى آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تتمثل فى يوم القيامة.

وفى قوله تعالى ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحديث الذى أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟

وهل في اتباعهم للأهواء ولتقنينات بعضهم لبعض سعادة لهم ؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى:



وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التى قد يقف العقل فيها، أو تأخذه مذاهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها فى بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه فى سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر فى ذهن السامع.

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدى، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ليتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل فى ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً فى أى عمل؛ لأن ربنا يقول لنا فى الحديث القدسى الذى يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه ﴾ (١)

ومعنى الشركة فى عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفى لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى باب تحريم الرياء.

لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكا يجعل الله رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول فى الحديث القدسى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه» . ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدرى .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدِّل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من فى قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ



والمسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم فى التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذى يقوله محمد إنما يأتى منه جزافاً

بدون ضابط وليس من رب يُنْزِلُه. فلما أجاب بما عندهم فى التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة فى الزمن الماضى، واتفقوا معه على كل شىء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه:

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود: الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربى، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال، والمثال أن كل عَالَم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية. لكنهم لم يفطنوا إلى هذه، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسى، وأضاف الحق: ﴿. وازدادوا تسعا ﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين.

ومادة السؤال فى القرآن ظاهرة صحية فى الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل »، وساعة يقول الشرع: افعل، ففى ظاهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول: لا تفعل ففى ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمنع عنه يناقض شهوات النفس. وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته، حكاها القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله: « ويسألونك »؛ ومرة

ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك ». وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك »، لأن المضارع يكون للحال وللاستقبال.

وجاءت الأسئلة بالقرآن فى صيغة المضارع خمس عشرة مرة، وجاءت بصيغة الماضى مرة واحدة. وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً. وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » فى القرآن وبترتيب المصحف، نجد القرآن يقول:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول فى ذات الآية السابقة:

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾

وبعد ذلك فى سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾ (من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة طه)

و يختم هذه الأسئلة بقوله:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

تلك هى خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك »، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التى جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصدرا بـ« قل » وهو أمر للرسول: قل كذا، قل كذا، ولكن فى الآية الواحدة التى جاء فيها بصيغة الفعل الماضى و « إذا سألك »، لم يقل: فقل إنى قريب، بل قال: « فإنى قريب أجيب دعوة الداع »، لأن الله يعلم حب محمد لأمته، وحرصه عليهم ولذلك يقول:

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوؤه فيها، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه فى أمته. وقد ورد فى الحديث ما يؤيد ذلك، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ ربٍّ إنهنَّ أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (فرفع يديه فقال : أمتى أمتى وبكى فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسو له على أمته، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرّم به الرسول، فجاء الخطاب فى آية الدعاء بدون «قل».

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه. لذلك نجد أربع عشرة آية تأتى فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل »، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة «فقل» لتدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد، فكأن الفاء دلت على شرط

(١) رواه مسلم

مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربى نسفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و« يجلّيها » أى يُظهرها ، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة » ، و« الجلوة » أن يظهر الإنسان للناس ، و« الخلوة » أن يختلى عن الناس ، و« لايجليها » أى لا يظهرها ، و« لوقتها » ترى أنها مسبوقة باللام ، ويسمونها فى اللغة العربية « لام التوقيت » ، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهى بمعنى « عند » ، ومعنى دلوك الشمس ، أنها تتجاوز نصف السماء ، وتميل إلى المغرب قليلاً . وقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » أى لا يُبيِّنُها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

والثقل يعنى أن تكون كتلة الشىء أكبر من الطاقة التى تحمله ؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهى لا تثقل على الحمل .

أو أن الطاقة التى تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض ؛ فيكون الشىء ثقيلاً ، وقد يكون هذا الثقل أمراً ماديا ، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله ، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف ، فالحمل يكون ثقيلاً على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فينخ » به .

﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط، بل هو ثقل فكرى وعقلى أيضاً، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسى أو تمرين فى مادة الجبر، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره، وصعب الحل فى بعض الأحيان.

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس فى ملكاتها، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه، وهو أقسى أنواع الثقل، ولذلك فالشاعر القديم يقول:

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال: ثقل مادى، وثقل فكرى، وثقل نفسى.

و﴿ ثقلت فى السموات ﴾، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة. ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر، أما الملائكة فهى ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها، وبعضها يخدم البشر، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه، وبحياته، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون. فكونوا جميعاً مسخرين فى خدمته، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون، ولهم إلف بالخلق، إلف كاره للعاصى، وإلف محب للطائع. ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به. وإن وقع من الطائع زلة، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى. ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً»(١)

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه. وهكذا تدعو لنا الملائكة.

(١) رواه الدار قطنى فى سننه.

و« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعطى لها صورة توضح قوله الحق:

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول: « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »[١]

ومثل هذه التوقعات تخيف.

وقوله الحق:

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة، أى يجىء من غير استعداد نفسى لاستقباله. ويتابع سبحانه:

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفىَ من الحفاوة، والحفىّ هو المُلحُّ فى طلب الأشياء، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه، فيسأل هذا، وذاك إلى أن يجد إجابة.

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه، والحفى أيضا عالم بما يسأ ل عنه، وسبب العلم أنه ألحّ فى السؤال عليها.

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتهَ بمكان، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

(١) رواه سعيد عن قتادة.

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثانى لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذى يضعه فى قدميه من المشى فيقال عنه إنه: « حافى ». ولذلك يقال: حفى فلان إلى أن وصل للشىء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم: ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعْنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق:

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال: ﴿ علمها عند ربى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأنت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شىء ويمنحه البركة، وكذلك يعطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى نتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله : أنتم تسألونني عن الساعة ، وأنا بشر ، ومتلقٍّ فقط ، والإرسال بالمنهج يأتى من الله وأنا أبلغه ، ولا علم لى بموعد قيام الساعة ، ولا أملك لنفسى لا ضراً ولا نفعاً ، أى لا أملك أن أدفع الضر عنى أو أجذب النفع لنفسى ، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر ، فالإنسان يملك ما يعطيه الله ، والعاقل حين يملك ، يقول : إن هذا ملك عَرَضى ، لا آمن أن ينزع منى . ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾

أىْ أنَّ أحداً لا يملك شيئا إلا ما شاء الله أن يملكه ، ورسول الله من البشر . ويضيف :

﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)